

الدرس الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله -صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين-.

أما بعد:

(المتن)

فصل في فضل الذكر

عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِكِكُمْ، وَأَرْفَعَهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ، وَخَيْرَ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: ذِكْرُ اللَّهِ».

(الشرح)

قال المصنف -رحمه الله-: فصل في فضل الذكر، أي: من السنة؛ لأن الذي قبله كلام على فضل الذكر من خلال أدلة القرآن الكريم، وهنا شرع -رحمه الله- لبيان فضل الذكر من خلال الأدلة الواردة في سنة النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-، والسنة جاء فيها أحاديث كثيرة جداً دالة على فضل الذكر وعظيم مكانته عند الله -عز وجل-، وقد انتقى شيخ الإسلام -رحمه الله- منها بعض الأحاديث وقليلاً من النصوص الدالة على فضل الذكر، وإلا السنة مليئة بالأحاديث الدالة على فضل الذكر وعظيم مكانته عند الله -عز وجل-، وما يترتب عليه من الخيرات العظيمة والأفضال العظيمة للذاكرين في الدنيا والآخرة.

أورد أول ما أورد حديث أبي الدرداء وهو مخرج في سنن الترمذي وابن ماجه والحاكم كما ذكر المصنف -رحمه الله-، وهو حديث عظيم جداً في بيان فضل الذكر، وبيان أنه أفضل الأعمال وخيرها كما هو مصرح به في هذا الحديث، وقد بدأ النبي -عليه الصلاة والسلام- بيانه لفضيلة الذكر بأسلوب مُشَوِّق للقلوب وجاذب للنفوس، حيث بدأ -عليه الصلاة والسلام- حديثه بقوله: «أَلَا أُنبِئُكُمْ؟»، و(ألا) كما قال العلماء أداة تنبيه، تنبيه للسامع والمخاطب لما سئل على عليه، ولما سئيل له من العلم والكلام المفيد، قال: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ؟»، و«خير» هنا هي أفعل تفضيل، وتأني خير أفعل تفضيل على صيغتها دون أن يقال أخير، ألا أدلكم بأخير أعمالكم، والمراد هنا بخير أعمالكم أي: أخيرها أفضلها، فخير هنا أفعل تفضيل، ﴿اللَّهُ خَيْرٌ﴾، فتأتي (أفعل) تفضيل كما يقول العلماء على غير بابها يعني تُستعمل في التفضيل، وباب التفضيل أن يؤتى به بصيغة أفعل أخير وأفضل وأحسن وأجمل وأزكى وأطيب، لكن تأتي صيغة التفضيل على غير بابها بأن يقال خير، وأيضاً يقال شر تُستعمل في غير بابها، فهنا قال: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ؟»، أي: أخيرها، أحسنها في الخيرية وأفضلها، فالحديث فيه دلالة على أن الذكر خير الأعمال، بل مر معنا قريباً التنبيه على أن الذكر هو روح الأعمال، وأن تفاضل الناس في الأعمال بحسب تفاضلهم فيها بذكر الله -تبارك وتعالى-، فكل ما كان العمل أكثر ذكراً لله -تبارك وتعالى- فإن الفضيلة فيه تعظم، ومكانته تعلو، بحسب حال العابد فيه بذكر الله -تبارك وتعالى-، فكل ما كان ذكره لله أعظم كان حظه من الثواب أكبر، قال: «أَلَا أُنبِئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ؟»، أي: أخيرها وأفضلها.

«وَأَزْكَاها عِنْدَ مَلِيكِكُمْ» أزكاها قيل في معناها أي: أطهرها، وقيل: المراد بالزكاء النماء وهو الزيادة، يعني أعظمها بركة ونماءً وخيراً، فالزكاء يأتي ويُراد به النماء، ويراد به التطهر، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]، أي: طهرها، فيأتي بمعنى التطهر ويأتي بمعنى النماء، زكاء الشيء أي: نماءه وزيادته وكثرة خيره، قال: «أَلَا أُنبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاها؟»، أزكاها أي: أطهرها أو أزكاها أي: أكثرها بركة وخيراً ونماءً وفضيلة.

«وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ»، أي: أكثرها رفعا في الدرجات بحيث؛ إن حال المواظب عليها والمكثّر منها يزداد رفعة عند الله -عز وجل-، فهي ترفع العبد عند الله -عز وجل- أكثر من غيرها من الأعمال، أرفعها في درجاتكم يعني: أكثرها رفعا لكم في الدرجات عند الله -عز وجل- أكثر من غيرها من الأعمال، الأعمال ترفع العبد عند الله -عز وجل- ولكن أكثر الأعمال رفعا للعامل عند الله ذكر الله -عز وجل-، ولهذا قال: «وَأَرْفَعُهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ»، أي: عند الله، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ بِمَا عَمِلُوا﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فالعبد يعلم درجاته عند الله بحسب أعماله، وأعظم الأعمال رفعا في درجات العبد عند الله ذكر الله -تبارك وتعالى-. قال: «وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرَقِ»، «وَخَيْرٌ لَكُمْ» أي: أفضل من إنفاق الذهب والذهب معروف، والورق هو الفضة، يعني: خير لكم من إنفاق الذهب والفضة، أي: صدقة في سبيل الله -تبارك وتعالى-، ومن المعلوم أن بذل المال ولا سيما أنفسه وهو الذهب والفضة صدقة في سبيل الله -تبارك وتعالى- من خير الأعمال وأحبها إلى الله -تبارك وتعالى-، ولكن يُبين -عليه الصلاة والسلام- في هذا الحديث أن ذكر الله -تبارك وتعالى- أعظم من إنفاق الذهب والفضة. «وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»، خير لكم أي: أفضل لكم من أن تلقوا العدو وتقاتلوهم ضربا لأعناقهم بالسيوف ويضربوا أعناقكم، ومن المعلوم أن ضرب العنق يترتب عليه ماذا؟ يترتب عليه الشهادة، فهذا فيه أنه أفضل من الجهاد وأفضل من الشهادة، «تَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ» أي: تُجاهدوهم في سبيل الله، «وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ» أي: تُستشهدون في سبيل الله، «خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»، إذا ضُرب عُنق المسلم وهو في سبيل الله مقاتلاً فهي الشهادة في سبيل الله، وضربه لعنق الكفار في القتال هو من الجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى-، «خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقُوا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ»، هذا يدل على فضيلة الذكر، تقدّم في الجملة التي قبلها أنه أفضل من الصدقة، وهنا أفضل من الجهاد، والجهاد إنما شرع لإقام ذكر الله وإعلاء كلمة الله -تبارك وتعالى- لذلك شرع، وكل طاعة إنما شرعت لإقامة ذكر الله -تبارك وتعالى-. لما قال لهم النبي -عليه الصلاة والسلام- ذلك: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِكَذَا؟ قَالُوا: بَلَى أَخْبَرْنَا»، وتكون النفوس حينئذ قد اشتاقت شوقاً عظيماً لمعرفة هذا الأمر الذي هو خير الأعمال وأزكاها وأرفعها عند الله -عز وجل-، وأفضل من الصدقة بالذهب والفضة، وأفضل من ملاقات الأعداء فيضربوا أعناق المسلمين ويضرب المسلمون أعناقهم أفضل من ذلك، ما هو؟ قالوا: بلى أخبرنا به يا رسول الله، قال: «ذِكْرُ اللَّهِ»، فدلّ الحديث على فضيلة الذكر العظيمة ومنزلته الرفيعة وأنه خير الأعمال، كما أخبر بذلك الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ثم إن هذا لا يعني لا من قريب ولا من بعيد التقليل من شأن هذه الأعمال مثل الصدقة والجهاد والاستشهاد في سبيل الله، لا يعني التقليل منها، ولكن مقام الحديث وسياقه في بيان فضل الذكر وعظيم مكانته وأنه أرفع الأعمال وأجلّها وأحبّها إلى الله -سبحانه وتعالى-. وسيأتي معنا في الحديث «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ»، والأحاديث الدالة على تفضيل الذكر على غيره كثيرة جداً، ولهذا يقول ابن رجب -رحمه الله-، يقول: وقد تكاثرت النصوص بتفضيل الذكر على الصدقة بالمال وغيره من الأعمال، والحديث واضح في الدلالة على هذا.

(المتن)

وقال أبو هريرة -رضي الله عنه-: قال النبي ﷺ: «سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ، قَالَ: وَمَنْ الْمُفْرِدُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ». خرجه مسلم.

(الشرح)

ثم أورد المصنف -رحمه الله- هذا الحديث وقد قاله النبي -عليه الصلاة والسلام- وكان مع أصحابه في سفر، فمروا على جبل فقال: «هَذَا جُمُودَانُ» يعني ذكر لهم اسمه -عليه الصلاة والسلام-، ثم قال -عليه الصلاة والسلام-: «سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ» أي: إن المفردين هم أهل السبق، وكأن الحديث يُصَوِّرُ العاملين في ميدان سباق يتسابقون ويتنافسون في هذا الميدان، ويُبين أن أسبقهم في هذا الميدان المفردون، تأمل يقول: «سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ»، المفردون هم أهل السبق في ميدان التنافس في طاعة الله -تبارك وتعالى-، وكأن العاملين في ميدان مسابقة يتسابقون لنيل الرتب العالية والمنازل الرفيعة عند الله، ويخبر -عليه الصلاة والسلام- أن المفردين أهل السبق في هذا الميدان، وهذا يقتضي تحرك سؤال في قلب السامع عندما يسمع أن المفردين هم أهل السبق أن يعرف من هم المفردون، وهذا يدلنا على حرص الصحابة -رضي الله عنهم وأرضاهم- على الخير والتنافس فيه ومعرفة فضائل الأعمال وأحبها إلى الله -تبارك وتعالى-، فلما قال -عليه الصلاة والسلام-: «سَبَقَ الْمُفْرِدُونَ»، قال الصحابة -رضي الله عنهم-: وما المفردون يا رسول الله؟ يعني ماذا تقصد بهم؟ من تعني بالمفردين؟ الذين هم أهل السبق في ميدان التسابق والتنافس في طاعة الله، من هم هؤلاء؟ قال -عليه الصلاة والسلام-: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»، فالحديث يدل على فضل الذكر، وأن أهل العناية به وأهل الرعاية له هم أهل السبق في ميدان التسابق في التقرب إلى الله -تبارك وتعالى- بالأعمال، فالناس يتسابقون بأنواع من الأعمال المشروعة والطاعات المشروعة، وأسبقهم في هذا الميدان هم أهل الذكر لله -تبارك وتعالى- بالكثرة، كما قال: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ» أي: كثيرًا، فهذا فيه فضيلة ذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة، وقد مر معنا في الآيات التي أوردها المصنف جملة من الآيات الدالة على فضيلة ذكر الله -تبارك وتعالى- بالكثرة، والحديث هنا يدل على أن هؤلاء هم المفردون و هم أهل السبق في مضمار التسابق لطاعة الله -عز وجل- والقرب منه -سبحانه-.

(المتن)

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بُسْرِ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، قَالَ: «لَا يَزَالُ لِسَانَكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى». رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

(الشرح)

ثم أورد المصنف -رحمه الله- هذا الحديث حديث عبد الله بن بسر أن رجلاً قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ، يعني كثرت الأعمال عليّ، الأعمال أي: الأمور بها المؤمن في كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام-، يقول: كثرت عليّ، الأعمال كثيرة جدًا، فَأَخْبِرْنِي بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ، أي: أتمسك به، وهذا الشيء الذي طلب هذا الرجل أن يُخبره النبي -عليه الصلاة والسلام- ليتشبث به ليمسك به لم يطلبه من أجل أن يتفكك به من أعمال الشريعة، وانتبهوا لهذا لم يطلبه من أجل أن يتفكك من أعمال الشريعة ويتصل من أعمال الإسلام، ليس هذا مراده ولا يمكن أن يكون هذا مطلوبه، لا يمكن أن يكون جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يطلب منه عملاً معين ويتصل من أعمال الشريعة وأعمال الدين ليس هذا الذي أراد، وإنما أراد شيئاً يتمسك به فيكون سبباً لحِفَّةِ هذه الأعمال عليه ويُسرّها، وألا تكون ثقيلة عليه وأن يخف عليه القيام بها ويسهل، فقال:

دلني على شيء أتشبه به، أعمال الشريعة كثيرة فأريد شيئاً أتشبه به، فأرشدني النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى ذكر الله، قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى-»، فأخذ العلماء من هذا الحديث فضيلة عظيمة جداً للذكر ألا وهي أن ذكر الله -تبارك وتعالى- يُخَفِّفُ الأعمال، يُيسر أمر القيام بشرائع الإسلام وأمور الدين وتلين، يُلينها ويُسهلها ويُيسرها ولا تكون ثقيلة على العبد، تَنَقِّلُ على العبد إذا يُيسر لسانه عن ذكر الله وغفل قلبه عن ذكر الله تكون الأعمال ثقيلة عليه، إذا نُودي للصلاة تكون هذه المناداة للصلاة من أثقل ما يكون على قلبه، وإذا نُودي إلى طاعات أخرى تكون ثقيلة عليه جداً، لكن إذا اعتنى بذكر الله وكان ذاكرًا لله وتحرك لسانه بذكر الله وتحرك قلبه بذكر الله -تبارك وتعالى- لانت عليه الطاعات وخفَّت وأصبحت يسيرة، ولم يُصبح لها الثِقَلُ؛ الثِقَلُ الذي كان يجده في قلبه عندما يُنادى للطاعة يذهب ويتلاشى، إذا حرك لسانه بالذكر وحرك قلبه بالذكر وزالت الغفلة عنه تلين الطاعة، وهذه فائدة عظيمة جداً أرشد إليها النبي -عليه الصلاة والسلام-.

قال: إن شرائع الإسلام كثرت عليّ، شرائع الإسلام صلاة وصيام وحج وصدقة إلى غير ذلك من الأعمال التي أمر الله -تبارك وتعالى- بها، فدلني على شيء أتشبه به، هل مراد السائل وأنا أريد أن أؤكد على هذه المعلومة، هل مراد السائل عندما قال: أريد شيئاً أتشبه به وأتمسك به ترك شرائع الإسلام؟ هل هذا مراده؟ لا يمكن أن يكون هذا المراد، لا يمكن أن يكون مراده كثرت عليّ شرائع الإسلام صلوات مفروضة، صيام، حج، فأنا أريد أن تدلني على شيء أتشبه به وأترك هذه الأعمال، هل هذا مراده؟ لا يمكن أبداً؟ إذن ماذا أراد؟ أراد أن يدلّه النبي على شيء وعلى أمر بحيث إذا تمسك به وواظب عليه وحافظ عليه تيسرت له هذه الأعمال، فهو لم يأت إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يطلب منه التنصّل من أعمال الإسلام وفرائض الدين وواجباته، لم يكن هذا هو المراد، وإنما أراد شيئاً يتشبه به ويتمسك به فتلين عليه الشرائع، ولأجل هذا أخذ العلماء من هذا الحديث العظيم فائدة جليلة القدر كبيرة الفائدة ألا وهي؛ أن ذكر الله -تبارك وتعالى- يُيسر للعبد القيام بالطاعات، ويدلّلها له، ويذهب عنه الثقل الذي يجده كثير من الناس في قلوبهم عندما يُنادون إلى الطاعات وإلى العبادات، فمن آثار الذكر العظيمة وآثاره المباركة وثماره اليانعة أنه يُلين الطاعة ويُيسرها، ولهذا أرشد النبي -عليه الصلاة والسلام- هذا الرجل الذي جاء إلى النبي -عليه الصلاة والسلام- يذكر كثرة الشرائع وكثرة الأعمال وتعدّدها وتنوعها، فيريد شيئاً يتشبه به، فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام- «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، لاحظ اختيار النبي -عليه الصلاة والسلام- هنا لقوله: «رَطْبًا»، وهذا فيه دلالة على اللبونة التي تحصل والتيسير الذي يحصل من عناية العبد ورعايته للذكر ومواظبته عليه وإكثاره منه، يُصبح لسانه رطباً وهذه الرطوبة تدل على لبونة في إقباله على الطاعات والعبادات وأنواع الشرائع التي أمر بها العبد، قال: «لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»، وهذه الرطوبة تدل على التيسر والسهولة واللين وزوال الجفاف الذي كان عنده، وزوال الغلظة وزوال قسوة القلب، القلب إذا قسى ما يميل للطاعات، لا يميل القلب للطاعات إلا إذا لَانَ، والذي يُلينه ذكر الله، جاء في بعض الآثار أن رجلاً جاء إلى الحسن البصري -رحمه الله- وقال: أشكو إليك قسوة قلبي -قلبي قاسٍ؛ فماذا أصنع- قال: أَذِبْهُ بِذِكْرِ اللَّهِ، يعني: أذب قسوة القلب بذكر الله -تبارك وتعالى-، فذكر الله -تبارك وتعالى- يُلين القلب ويُرطب اللسان، فإذا حصل لين القلب ورطوبة اللسان ذهب عن الإنسان الثِقَلُ، وأصبح مكانه لبونة فتلين الطاعة عنده وتيسر له العبادة، وينشرح صدره إليها ويأنس بالقيام بها، وتكون العبادة قرة عين له، فرق بين من يقول أرحنا بالصلاة ومن يقول أرحنا من الصلاة، بعض الناس يُصلي ولكنه يملّ من الصلاة ويتضايق ويجدها ثقيلة على قلبه، وآخر يُصلي وهو يجد الصلاة راحة له وقرة عين، وكل ذلك ثمرة لذكر الله -تبارك وتعالى-، فذكر الله -عز وجل- هو الذي يُلين العسير ويُسهل الصّعب، ويُقوي العزائم وتنهض به الهِمَمُ، ويُقبل العبد به على طاعة الله -تبارك وتعالى-، هذه

كلها ثمار لذكر الله -تبارك وتعالى- وآثار، قال: **إن شرائع الإيمان قد كثرت عليّ**، الحديث فيه دلالة أخرى على أن الأعمال التي هي شرائع الدين داخلية في الإيمان، ولهذا قال شرائع الإيمان فالأعمال من الإيمان ليست أجنبية عنه أو خارجة عن مسماه بل هي منه، ولهذا قال هذا الرجل في سؤاله شرائع الإيمان، فالإيمان له شرائع ليس الإيمان عقيدة في القلب فقط يعتقد بها الإنسان في قلبه وينتهي الإيمان عند هذا الحد، الإيمان عقيدة وقول وعمل، ولهذا قال هذا السائل شرائع الإيمان فالإيمان له شرائع داخلية في مسماه ويتناولها اسمه، ولهذا قال -عليه الصلاة والسلام- في حديث وفد عبد القيس المخرج في الصحيحين، قال: **«أَمَرَكُمُ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا الْخُمْسَ مِنَ الْمَغْنَمِ»**، فعد -عليه الصلاة والسلام- هذه الشرائع، الصلاة، الزكاة، الصيام، عدّ هذه الشرائع من خصال الإيمان، ولهذا السائل هنا يدرك أن الإيمان يتناول الشرائع، ولهذا قال في سؤاله: إن شرائع الإيمان، ما هي شرائعه؟ الصلاة من شرائع الإيمان، الزكاة من شرائع الإيمان، الصيام من شرائع الإيمان، كل طاعة أمر الله -تبارك وتعالى- بها هي من شرائع الإيمان، وأيضاً ترك ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه من المحرمات والآثام هو أيضاً من شرائع الإيمان، من شرائع الإيمان أن يبتعد العبد عن الحرام وعما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه، ولهذا جاء في الحديث عن النبي -عليه الصلاة والسلام- أنه قال: **«لَا يَزِينِي الرَّأْيُ حِينَ يَزِينِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ»**، فدل الحديث على أن ترك هذه الأعمال السيئة والجرائم الخسيسة من الإيمان وفعلها نقص في الإيمان، الشاهد أن الإيمان ليس مجرد عقيدة في القلب، الإيمان عقيدة وشرعية، كما قال -عليه الصلاة والسلام-: **«قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ»**، الإيمان عقيدة وشرعية، عقيدة قل آمنت بالله، شرعية ثم استقم، أي: على طاعة الله، وعلى الأعمال المقربة إلى الله -تبارك وتعالى-، قال: **إن شرائع الإيمان قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به**، عرفنا معنى أتشبث أي: أتمسك، ومرة ثالثة الرجل لما أراد من النبي -عليه الصلاة والسلام- شيئاً يتشبث به وذكره في سياق إخباره بكثرة شرائع الإسلام عليه، ماذا جاء يريد من النبي -عليه الصلاة والسلام-؟ هل جاء يريد منه أن يرشده إلى عمل معين يتمسك به ويترك أعمال الشرعية؟ أو أراد شيئاً يتمسك به فتلين عليه أعمال الشرعية؟ لا يمكن أن نختار إلا الثاني، ما يمكن أن نقول: إنه جاء يريد من النبي ﷺ أن يُعفيه من الصلاة التي هي فريضة من فرائض الإسلام، وأن يُعفيه من الصيام التي هي فريضة من فرائض الإسلام، وأن يُعفيه من الحج، وأن يرشده إلى شيء واحد فقط يتمسك به، ما يمكن أن نقول هذا أبداً، فالرجل جاء يريد شيئاً يتشبث به فتتيسر عليه هذه الأعمال الكثيرة وتحون على قلبه، فأرشده -صلوات الله وسلامه عليه- إلى العناية بالذكر. قال: **«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ»**، فما دُمت محافظاً على ذكر الله -تبارك وتعالى- فكل الأمور ستتيسر، وليست الأمور التي تتيسر لك أمور الدين فقط بل الدين والدنيا، فذكر الله -تبارك وتعالى- سبب للخيرات والبركات الدينية والدنيوية.

(المتن)

عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ». أخرجه البخاري.

(الشرح)

ثم أورد المصنف -رحمه الله- هذا الحديث، حديث أبي موسى الأشعري وهو في صحيح البخاري، والحديث يُروى بلفظين كلاهما في الصحيح، اللفظ الأول هو هذا الذي أورد المصنف -رحمه الله-: **«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»**، واللفظ الثاني للحديث: **«مَثَلُ الْبَيْتِ الَّذِي يُذْكَرُ فِيهِ اللَّهُ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يُذْكَرُ فِيهِ اللَّهُ كَمَثَلِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»**،

فالحديث له لفظان له روايتان الأولى تتعلق بالشخص نفسه، والرواية الثانية تتعلق بالبيت الذي يقطنه ويسكنه، «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»، الحديث يُفيد أن ذكر الله -تبارك وتعالى- حياة القلوب، وأن الغفلة عن ذكر الله موت القلوب، وهذا واضح من المثل المضروب، فذكر الله -تبارك وتعالى- حياة القلوب لا تحيا إلا به، والغفلة عن ذكره -تبارك وتعالى- موت القلوب، بل إن شيخ الإسلام مصنف هذا الكتاب -رحمه الله- قال: **مثل حاجة القلب لذكر الله مثل حاجة السمكة للماء**، فالقلب لا يحيا إلا بذكر الله -تبارك وتعالى-، وإذا غفل عن ذكر الله فالغفلة عن ذكره -سبحانه وتعالى- سبب لموته، فحياة القلوب ذكر الله، وموتها الغفلة عن ذكره، ثم الرواية الأخرى للحديث قال: «**الْبَيْتِ الَّذِي يَذْكُرُ فِيهِ اللَّهُ وَالْبَيْتِ الَّذِي لَا يَذْكُرُ فِيهِ اللَّهُ كَمَثَلِ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»، وهنا فيه مثال للبيت الذي يشغله أهله بالذكر ويعتنون فيه بذكر الله، والبيت الذي لا يعتني أهله فيه بذكر الله مثل هذين البيتين مثل الحي والميت، ومن مجموع الروایتين نأخذ فائدة في فضيلة الذكر أن الذاكرين في بيوتهم مثل الأحياء في بيوتهم، تدخل بيوت فيها أحياء أو ناس يتحركون يقوم ويقعد ويجلس ويأكل ويذهب فيه حركة فيه حياة، فمثل البيت الذي يُذكر فيه الله -جلّ وعلا- مثل البيت الذي فيه أناس أحياء يتحركون في حركة، ومثل البيت الذي لا يُذكر فيه الله مثل المقابر التي ليس فيها إلا أموات، ولهذا أيضاً أخذ بعض العلماء فائدة من هذا الحديث أن من لا يذكر الله -تبارك وتعالى- يصبح صدره مقبرة لقلبه، قلبه مدفون في صدره، قلبه ميت مدفون في صدر الإنسان، والحديث يدل على هذا المعنى، القلب الذي لا يذكر الله، القلب الذي لا يعتني بذكر الله مثله مثل الميت وهو مدفون في صدر صاحبه، فهذه كلها معاني يدل عليها ويرشد إليها هذا الحديث، والحديث يدل على أن الحياة حياة القلوب لا تكون إلا بالذكر والغفلة عنه موت القلوب، والحديث أيضاً بروايته الأخرى يدل على أهمية العناية بذكر الله -تبارك وتعالى- في البيوت، البيوت التي هي سكن الإنسان له ولولده ولأهل بيته لا يجوز أن تكون مثل المقابر، اقرؤوا قول النبي -عليه الصلاة والسلام-: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»، ما معني لا تجعلوا بيوتكم قبوراً؟ أي: لا تجعلوا بيوتكم مثل المقابر التي لا يُشرع أن تكون مكاناً للصلاة ومكاناً للذكر، المقابر ليست مكاناً للصلاة، وليست مكاناً يُقصد للذكر، وليست مكاناً يُقصد لتلاوة القرآن، مع أن كثيراً من الجهّال لا يعرف قراءة القرآن إلا عند المقابر، يذهب إلى المقبرة ليقرأ الفاتحة وليقرأ يس وليقرأ سوراً أخرى وهذا كله لا دليل عليه من الشرع، قال -عليه الصلاة والسلام-: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» يعني: لا تجعلوها مثل القبور، النبي ﷺ لما قال للصحابة: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» ماذا أراد منهم بهذا النهي؟ أراد أن يقرؤوا القرآن في بيوتهم، أراد أن يذكروا الله -تبارك وتعالى- في بيوتهم، أراد أن تتحرك البيوت بذكر الله -تبارك وتعالى-، هذا الأمر طلبه منهم بقوله: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» لأن المخاطبين يعلمون ماذا؟ لما قال: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»، طالباً منهم أن يتحركوا في بيوتهم بالذكر وتلاوة القرآن والعناية بالعبادة والصلاة والدعاء، طلب منهم ذلك بقوله: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**» لأن المخاطبين يعلمون أن المقابر ليست مكاناً لهذه الأمور، ليست مكاناً للصلاة وليست مكاناً لتلاوة القرآن ولا يُشرع أن تقصد لهذه الأشياء، وبهذا يتضح النهي هنا، «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا**»، يعني لا تجعلوها مثل القبور التي لا تشرع فيها الصلاة لا يشرع فيها تلاوة قرآن، ليست مكاناً لذلك، الشاهد من هذا أن البيت الذي لا يُذكر فيه الله -جلّ وعلا- مثل المقبرة وأصحابه أموات في داخل بيوتهم، بيوتهم أصبح أشبه بالمقابر التي ليس فيها قرآن وليس فيها صلاة وليس فيها أذكار، ليست مكاناً لذلك، فالشاهد من الحديث أن فيه دلالة على فضيلة عظيمة لذكر الله -تبارك وتعالى- ألا وهي حياة القلوب، القلوب لا تحيا إلا بالذكر، ولأجل هذا سمي الله -تبارك وتعالى- الوحي روحاً، قال -عزّ وجل-: «**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا**» [الشوري: ٥٢]،

سمى الوحي روحًا لماذا؟ لأن به تحيا القلوب وبدونه تموت، وفي القرآن قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، فالشاهد أن من فضائل الذكر العظيمة أن به حياة القلوب.

(المتن)

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَزْرَةٌ، وَمَنْ اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَزْرَةٌ»، أي، نقص وتبعة وحسرة.

(الشرح)

ثم ختم هذا الفصل بهذا الحديث الذي فيه النهي عن الغفلة عن ذكر الله -تبارك وتعالى- والتحذير من ذلك، وأن المجلس الذي يجلسه الإنسان والمضطجع الذي يضطجعه الإنسان ويكون خاليًا من ذكر الله سيكون تَزْرَةً عليه، أي: حسرة وندامة يوم القيامة، يوم يلقي الله -تبارك وتعالى- يندم ويتحسر ولا ينفعه حينئذٍ الندم، فختتم بهذا الحديث الذي فيه النهي عن الغفلة عن ذكر الله -تبارك وتعالى-، قال ﷺ: «مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى تَزْرَةٌ»، ومعنى تَزْرَةٌ أي: حسرة وندامة، يكون هذا المجلس ندامة عليه يوم القيامة لأنه مجلس خلا من ذكر الله، ثم ذكر أيضًا للمضطجع عندما يضطجع الإنسان على شقه لينام أو على شقه ليستريح ثم يقوم من اضطجاعه دون أن يذكر الله -تبارك وتعالى- هذا أيضًا يكون عليه حسرة يوم القيامة وندامة، وهذا فيه تأكيد على المعنى الذي مر معنا في الآية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١]، وأن المسلم ينبغي أن يكون ذاكراً لله في كل أحواله، وهو قائم يذكر الله وهو قاعد يذكر الله وهو مضطجع يذكر الله، فإذا اضطجع مضطجعاً وقام منه ولم يذكر الله -تبارك وتعالى- كان عليه من الله تَزْرَةٌ في مضجعه ذلك، وكذلك إذا قعد مقعداً وقام منه ولم يذكر الله -تبارك وتعالى- كان عليه من الله تَزْرَةٌ، فالحديث فيه تأكيد على أهمية العناية بالذكر في كل الأحيان وفي كل الأوقات، في حال القيام وحال القعود وحال الاضطجاع، المسلم يذكر الله -تبارك وتعالى- في كل أحيانه، والحديث فيه خطورة المجالس التي تخلو من ذكر الله على أصحابها وأربابها، ويقوم منه أصحابها غير ذاكرين لله -تبارك وتعالى-، فهذه المجالس مجالس خطيرة جداً ومُضرة لأصحابها وستكون عليهم يوم القيامة ندامة وحسرة، وفي الحديث إشارة أيضاً إلى أن المجالس إن لم تُشغل بذكر الله -تبارك وتعالى- فيكون بركة على أهل المجلس وركاء ورفعة، إذا لم تُشغل بذكر الله -تبارك وتعالى- سَتُشغل بضده، وهو الغفلة وما تقتضيه الغفلة من الأمور المحرمة والأعمال السيئة، إذا خلت مجالس الناس من ذكر الله -تبارك وتعالى- والتذكير بالله انشغلوا بالغيبة وانشغلوا بالنميمة وانشغلوا بالسخرية وانشغلوا بالاستهزاء، وانشغلوا بأقوال محرمة والكلمات السيئة إلى غير ذلك من الأمور الشنيعة، لكن إذا ذكروا بالله أو شُغل مجلسهم بذكر الله -تبارك وتعالى- ذهبت عنهم الغفلة وتوابعها، الغفلة لها توابع إذا غفل الإنسان عن ذكر الله -تبارك وتعالى- فإن لغفلته عن ذكر الله توابعاً كثيرة تأتي تبعاً للغفلة، وإذا زالت الغفلة زالت تلك الأشياء، وهذا أيضاً فيه تنبيه على فضيلة الذكر وأن المجالس إذا شُغلت بالذكر عم خيرها وكثرت بركتها وعظم نفعها على الجالسين، وإذا شُغلت بالغفلة عن ذكر الله -تبارك وتعالى- هلك أصحابها بالأعمال السيئة والأقوال المنكرة والأشياء المحرمة التي تحصل في المجالس، فالشاهد أن الحديث في فضل الذكر وعظيم مكانته وضرورة شغل المجالس والأوقات فيه، وأن المسلم مطلوب منه أن يذكر الله -تبارك وتعالى- قائماً، وأن يذكر الله -تبارك وتعالى- قاعداً، وأن يذكر الله -تبارك وتعالى- مضطجعاً، ثم هنا لاحظ أمرًا مفيداً يُعينك على ذكر الله -تبارك وتعالى- على القيام والقعود والاضطجاع ألا وهو أن تتذكر نعمة الله عليك بقيامك وقعودك واضطجاعك، أن تتذكر نعمة الله عليك بقيامك عندما تكون نشيطاً قوياً وتمشي في خطواتك بنشاط وقوة، من الذي أعطاك هذا؟ ثم إذا تعبت واحتجت

إلى الراحة والنوم واضطجعت على جنبك وأغمضت عينيك ومنت، من الذي منَّ عليك بنعمة النوم لتتاح من التعب والنَّصب؟ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]، آية من آيات الله النوم، وهو نعمة من نعمه -تبارك وتعالى- العظيمة، وإلا لو كان وقتك كلها يقظة والحياة كلها نهار يصبح حياة الإنسان في تعب، وتأملوا هذا في من يُصاب بالأرق لمدة ليالي لا يأتيه النوم، يُصبح في عذاب وفي ألم وفي مشقة وفي جهد، فالنوم نعمة الله عليك فأنت لما تضطجع على جنبك اضطجاعك على جنبك هذا مِنَّة الله، ثم إذا قمت من مضطجعك مرتاحًا زال عنك تعبك هذه مِنَّة الله عليك، فكيف يليق بك أن تضطجع وتقوم وتقع ولا تذكر الذي أنعم عليك بالاضطجاع، وأنعم عليك بالقعود، وأنعم عليك بالقيام! تضطجع غافلاً، وتقوم غافلاً، وتقع غافلاً عن من أنعم عليك بهذه النعم! عندما يتذكر الإنسان النعمة نعمة الله عليه بالقيام والقعود والاضطجاع والحركة إلى غير ذلك هذا يُحرك بقلبه ذكر الله، التفكُّر يُحرك التذكُّر، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ [١٩٠] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، التفكُّر يُحرك التذكُّر، عندما يتفكر الإنسان في النعم والمِنَّة والعطايا التي من الله -تبارك وتعالى- عليه بها، ولهذا شُرع لنا إذا أوى أحدنا إلى فراشه أن يقول: (بِسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتَ جَنِيَّ وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنَّ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا)، بك وضعت جنبي وبك أرفعه يعني بعونك ومنك ومدك وتوفيقك وضعت جنبي وبك أرفعه، فاضطجاعك وقعودك وقيامك كله بالله، لولا عون الله لك ما حصل لك شيء من ذلك، فكيف يليق بعد أنعم الله -تبارك وتعالى- عليه بهذه النعم العظيمة والمِنَّة الجسيمة، ثم يضطجع ويقعد ويقوم ويمشي ويتحرك وهو في كل ذلك غافل عن ذكر الله!

نسأل الله لنا ولكم العافية والسلامة، وأن يعيدنا من سبيل الغافلين، وأن يجعلنا له ذاكرين له شاكرين إليه أوابين منيبين، ونسأله -تبارك وتعالى- التوفيق لكل خير، والإعانة على طاعته وما يُقرب إليه، إنه -تبارك وتعالى- سميعٌ قريبٌ مجيب.